مقام الرضا عند الصوفية

للاستاذ أبو الوفا الغنيمى التفتازانى
شيخ السادة الغنيمية ومدرس الفلسفة الاسلامية
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

يقوم التصوف على أساس مجاهدة النفس الانسانية بغية التوصل الى الكمال الأخلاقى الذى رسمه الاسلام . وينشأ عن مجاهدة الصوفية لنفوسهم فى طريقهم الى الله تعالى ما يعرف بالمقامات والأحوال .

والمقام عند الصوفية ما يرسخ للسالك من أحوال السلوك كالتوبة والزهد والصبر والشكر والتوكل والمحبة والرضا . فاذا قيل : ان السالك متحقق بمقام التوبة فان هذا يعنى أنه قد جاهد نفسه عن المعاصى والشهوات وصار مالكا لزمامها تماما ، وهذا يعنى أيضا أن المقام يكون بكسب العبد . أما الحال فهو ما يعرض للسالك فى طريقه دون كسب منه فهو معنى يرد على القلب من غير تعمد كالطرب والحزن والقبض والبسط والشوق والانزعاج والهيبة ، فهذه كلها أحوال ترد على السالك فى سلوكه ولا تدوم له ، ويمكن بهذا القول بأن الحال وهبى .

ونريد أن نقف فى هذا البحث عند مقام من مقامات السلوك عند الصوفية .. وأعنى به مقام الرضا الذى يعتبره كثير من أئمة الصوفية نهاية ما يتحقق به السالك فى طريقه .

فماذا يعنى الرضا ، وهل يستند الى أدلة من الكتاب والسنة .. ؟

الرضا عند الصوفية يعنى أن يكون السالك للطريق راضيا عن الله وغير معترض على تقديره تعالى ، ولهذا فهو مقام صعب للغاية ، لأن الانسان بطبيعته كثير الجزع اذا ما صادفته عقبة أو شدة ، وجزعه يتضمن اعتراضه على قضاء الله ..

ويستند مقام الرضا الى قوله تعالى : « **رضى الله تعالى عنهم ورضوا عنه** » وواجب العبد أن يرضى بالقضاء الذى أمر بالرضا به فيما عدا المعاصى فلا وجه للرضا بها أو عنها ، وفى هذا المعنى يقول القشيرى فى رسالته : « واعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذى أمر بالرضا به اذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصى وفنون محن المسلمين » .

وكذلك فان رضا العبد عن الله تعالى فيما يورده سواء كان محنة أو منة

هو من علامة رضا الله تعالى عليه ، مصداقا لما جاءت به الآية السابقة ، ومن طريف ما يروى بهذا الصدد ما رواه الاستاذ أبو على الدقاق قائلا : قال تلميذ لأستاذه : هل يعرف العبد أن الله تعالى راض عنه ؟ فقال : لا ، كيف يعلم ذلك ورضاه غيب ؟ فقال التلميذ : الولى يعلم ذلك ، فقال : كيف ؟ قال : اذا وجدت قلبى راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عنى ، فقال الأستاذ : أحسنت يا غلام !! » .

ويستند مقام الرضا كذلك الى شواهد من السنة منها قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا » .. فهذا الحديث يفيد أن الايمان اذا تمكن من قلب المؤمن لم يسخط فى وقت من الاوقات لعلمه بأن الله هو الفاعل لكل شىء على التحقيق وأن كل ما يورده الله عليه ففيه مصلحته ، بل ان كامل الايمان يلتذ أحيانا بالبلايا والمحن لرؤيته الحق تعالى فيها ، ويفيد هذا الحديث أيضا أن من لم يتحقق بالرضا لم يلاق حلاوة الايمان ويكون ايمانه صورة لا روح فيها ، وظاهرا لا باطن له ومرتسما لا حقيقة تحته . أما المتحقق بالرضا فهو مستسلم لله ، منقاد لحكمه ، ملق قياده اليه ، وواجد لذة العيش وراحة التفويض ، فهو مؤمن على الحقيقة .

واختلف الصوفية فى شأن الرضا : ففريق منهم يعتبره من جملة المقامات وأنه مما يتوصل اليه العبد باكتسابه ، وفريق آخر يعتبره من جملة الأحوال وأنه ليس كسبا للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال ، وفريق ثالث وهو فى رأينا أقرب الى الصواب يقول ان بداية الرضا مكتسبة للعبد وهى من المقامات ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة ، وبعبارة أخرى نهايته مردودة الى عناية الله التى شاءت للسالك أن يتحقق به ، والى هذا المعنى يشير عبد الواحد بن زيد بقوله : « الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا واعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق سبحانه الا بعد أن يرضى عنه الحق سبحانه لأن الله عز وجل قال : **رضى الله عنهم ورضوا عنه** » . وحول هذا المعنى يقول ابن عطاء الله السكندرى : « ولا يكون الرضا بالله الا مع الفهم ، ولا يكون الفهم الا مع النور ، ولا يكون النور الا مع الدنو ، ولا يكون الدنو الا مع العناية » .

ونحب أن نوضح حقيقة معنى الرضا فى الأذهان : فالرضا عن الله تعالى ليس استسلاما للمقادير أو عدم اكتراث بمعنى أن يكون الصوفى سلبيا ، ضعيفا بازاء ما يرد عليه ، ولكن الرضا عن الله من الناحية النفسية يعطى الصوفى قوة هائلة تعينه على تحمل أعباء الحياة وتحمله على الكفاح الدائب فيها ، لأن الصوفى لا يجزع اذا صادفته شدة أو نزلت به محنة ، بل حينما ترد عليه الشدائد والمحن فانها تخلق منه انسانا شجاعا مكافحا ثابتا لايمانه بالله الذى يسهل عليه الخروج من جميعها ، ولا كذلك من يجزع من

الناس لضعف ايمانه فهو اذا وردت عليه الشدة قهرته بسهولة ، وتغلبت عليه فى يسر ، فكان مصيره الفشل والضياع فيما هو بسبيله .

واذا أردنا أن نعرف الرضا من الناحيـــة النفسية قلنا انه حال يستوى فيه عند الصوفى المنة والمحنة واللذة والألم ، لأنها جميعا من عند الله ، وهو قد عود نفسه التقبل التام لأحكام الله ومقاديره والسكون لها ، فهو دائم السرور بمر القضاء ، وفى هذا يقول أبو بكر بن طاهـــر : « الرضا اخراج الكراهية من القلب حتى لا يكون فيه الا فرح وسرور » . وسئلت رابعة العدوية : متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : اذا سرته المصيبة كمـــا سرته النعمة . ويقول ذو النـــون المصرى : ثلاثة من أعـــلام الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء وفقدان المرارة بعد القضاء وهيجان الحب فى حشـــو البلاء . وسئل أبو عثمان عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : أسألك الرضا بعد القضاء ، فقال : لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا والرضا بعـــد القضاء هو الرضا .

ومن جميل ما قيل فى الرضا من حيث كونه سكوتا تاما للمقادير ما قاله أبو عثمان الحيرى : « منذ أربعين ســـنة ما أقامنى الله عز وجل فى حال فكرهته ، وما نقلنى الى غيره فسخطته » .

ومما سبق يتبين لنا فى وضوح أن مقام الرضا عند الصـــوفية من المقامات الرفيعة وأنه يهدف الى أن يعيش الانسان فى وفاق تام مع القدر ويجعله متحققا بالعبودية لله تعالى فى أسمى صورها .

ولكن هناك سؤال تحسن الاجابة عليه ، وهو : اذا كان الرضا عنـــد الصوفية بهذه المنزلة فما مكانه بين مقامات السلوك الأخرى .. ؟

نقول اجابة على هذا السؤال : ان كثيرا من الصوفية يعتبرون الرضا أكمل المقامات وأعلاها . ومن هؤلاء أئمة المدرسة الشاذلية ، على حين أن الامام الغزالى مثلا مع اعتباره اياه مقاما جليلا يجعله تابعا لمقام المحبـــة على نحو ما يستفاد من قوله فى الاحياء : « المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقـــدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهـــد وغيرها .. »

ولكنا على الرغم مما يقوله الغزالى بشأن الرضا وأنه من توابع المحبة ، نرى مقام الرضا أكمل من مقام المحبة ، بل هو أكمل المقامات على الاطلاق ، لأن الرضا يعنى أن يترك الانسان اختياره الى اختيار الله له . قيل للحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ان أباذر (الغفارى) يقول : « الفقر أحب الى من الغنى والسقم أحب الى من الصحة . فقال : رحم الله أباذر أما

أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمن غير ما اختاره الله عز وجل له » . وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافى : « الرضا أفضل من الزهد فى الدنيا لأن الراضى لا يتمنى فوق منزلته » .

والراضى بالله متجرد عن حظوظ نفسه وعن طلب هذه الحظوظ لها ، وتستوى عنده جميع الاحوال الواردة عليه من الوصل والقطع أو القرب والبعد لرضاه عن الله فى جميعها ولا كذلك المحب فهو يريد دوام الوصلة وشهود محبوبه ، فهو مع ما يريد لنفسه وان شئت قلت : هو لا يزال مع حظ النفس ، وبذلك يكون مقامه دون مقام الرضا . وما أجمل ما يقوله ابن عطاء الله السكندرى للسالك : « اعلم أن المحبة هى من أجل مقامات اليقين حتى اختلف أهل الله أيهما أتم : مقام المحبة أم مقام الرضا ؟ وان كان الذى نقول به ان مقام الرضا أتم لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوى عليه وجود الشغف فأداه ذلك الى طلب ما لا يليق بمقامه الا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب والراضى عن الله راض عنه أشهده أم حجبه ؟ المحب يريد دوام الوصلة والراضى عن الله راض عنه وصله أم قطعه آذ ليس هو مع ما يريد لنفسه ، بل انما هو مع ما يريد الله له ، والمحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له . ولنا فى هذا المعنى شعر :

وكنت قديمـــا أطلب الوصل منهم فلمـــا أتانى العلم وارتفع الجهـــل
تيقنت أن العبـــــد لا طلب له فان قربوا فضل وان بعـــدوا عدل
وان ظهروا لم يظهروا غير وصفهم وان ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وتفضيل ابن عطاء الله السكندرى لمقام الرضا على مقام المحبة ليس الا نتيجة لازمة عن فكرته الموجهة لمذهبه الصوفى ونعنى بها اسقاط الارادة والتدبير . فهو يرى أن مقـــام الرضا الذى يتحقق فيه السالك بالرضا عن الله فى جميع أحكامه ايمانا منه بالقدر وبما يستتبعه هذا من اسقاط الارادة والتدبير يكون أكمل من مقام المحبة الذى يكون فيه السالك واقفا مع ما يريد لنفسه من الوصلة بالله أو غيرها من الحظوظ ، لهذا نجده يشير الى أن من أخص معانى المحبة أن يكون المحب متحررا عن طلب الاعواض ، وبعبارة أخرى أن يكون متحررا فى حبه عن طلب الحظوظ لأن هذا مظهر ارادته لنفسه ، وهو قبيح منه فى السلوك بالقياس الى ما ينبغى عليه من أن يكون مسقطا لارادته وحظوظها على الدوام ، والى هذا الاشارة بقوله فى حكمة من حكمه : « ليس المحب من تبذل له » .

ولهذا لن يكمل السالك للطريق فى مقام المحبة فى رأى السكندرى الا اذا كان متحققا مع المحبة بترك الارادة والتدبير والتخلى عن حظوظ النفس بالكلية ، أو بعبارة أخرى الا اذا كان متحققا بمقام الرضا عن الله تعالى .

أبو الوفا التفتازانى